عبد الحفيظ شعبان،
أبا وليد،
يا رفيق الدرب الطويل

عزاءً وهل يجدي العزاءُ مع الردى

وصبراً وهل ينجي التصبر سيدا

فجعتَ قلوباً يا زمانُ بفقده

وأقفرت ربعاً يا أيها الردى

أبا وليد
أنا اليوم في حضرتك وحضرةُ الموتِ وقوفٌ في حضرةِ الحق.
أبا وليد
أقري السلام لأهلك وأخوانك وزملائك وإلى كل الحاضرين والغائبين من أصحابك أأنت آذن يا أمير؟؟ وإذا كان الرثاء بحد ذاته موقفاً صعباً يشقّ على الراثي، فما عساه يكون إذا كان المرثي زميلاً وأخاً وصديقاً تربطك به عشرةٌ لم تنفصم إلا بالموت، وتشدّه إليك صفاتُ هيهات أن تنسى، وإذا كان وداعُ المسافر من الدنيا إلى الدنيا أمراً صعبَ الاحتمال تواكبه الدموع، فما تُراه يكون وداعُنا الأخير؟

وما عسى كلماتنا البائسة أن تقول في رحلة الفزع الأكبر؟

هذا ما أحسسته لما هممت بكلمة أشارك بها في وداعه وهذا ما تيسر لي من القول الرازح بموضوعه، حروفاً قاصرات، أهديها إلى روحه لعلّي بها أنهض بما يجب.

عبد الحفيظ، ومن أين به أبدأ؟

لا تسلَني، إلا إذا أجبتني، كيف تبدأ الريحُ؟ وكيف تتحول إلى إعصار؟

أو كيف يتساقط المطر عندما ينتصب قوسُ قزح؟

وأحـار من أي الجوانـب أرتـقـي لأطالَ بعضَ شوامخِ البنيانِ

هل يُسأل الريحان عن كب الشذا كب الشذا بشمائل الريحـانِ

لست أدري لما يستعصي عليّ الكلام في مصرع الورد؟!

ولست أعرف كيف أرثي الصديق الحبيب عبد الحفيظ ولساني يقول مع الشاعر بدوي الجبل:

لا تسلها فلن تجيب الطلول

المغاوير مثخن أو قتيلُ

غاب عند الثرى أحباء قلبي

فالثرى وحده الحبيب الخليل

وسقوني على الفراق دموعي

كيف يروى من الجحيم الغليل

يا رفاقي بكيت فيكم شبابي

كل عيش بعد الشباب فضول

جندي يموت في ثوب الواجب وكادح يموت في ثوب العمل، وملاّح يموت وهو يمسك الإعصار بكلتي يديه.

هؤلاء يلاقون حتفهم بكبرياء وهذا ما يعرف بكبرياء الموت،

عبد الحفيظ رحل وهو كل هؤلاء.

أبا وليد، يا رفيق الدرب الطويل،

أتذكر منذ ما قارب الخمسين عاماً وكنت حينها مراقباً لعقد النفقات في وزارة التربية، وكنتُ يومها محرراً في مصلحة الموازنة ومراقبة عقد النفقات، وهذا الكلام يعود لعام 1965 لم أترك يومها وسيلة لتسجيل شقيقين لي في مدرسة فرن الشباك للصبيان/ ثانوية شفيق سعيد/ ولم أفلح، فوصفوا لي أن مراقب عقد النفقات في وزارة التربية عبد الحفيظ رجل محترم سواء في التربية أو المالية فأطرق بابه، فتردّدت لأني كنت أعرفك معرفة سطحية لا تتجاوز ثلاثة أشهر، ولكن ليس في اليد حيلة فخاطرت وذهبت إليك عارضاً قصتي وإني قد تواصلت مع عدد من الوزراء والنواب ولم يستطيعوا إلى ما أريده سبيلاً طلبت منك رسالة إلى المدير فضحكت وقلت: «تفضّل معي» ولم يكن لدي في حينه سيارة فأخذتني بسيارتك وأظن أنها كانت من نوع البيجو القديم العهد لأنك كنت نظيف الكف لا تعرف إلا الرزق الحلال، ودخلت مكتب المدير طالباً التسجيل وكان لك دون مراجعة وبقي أخواي في المدرسة إلى أن تخرجا منها في المرحلة الثانوية.

أن أنسى لا أنسى يوم سألتك موضوعاً مالياً يتعلّق بديوان المحاسبة وكيف يجب أن أعرض الموضوع فنصحت وصحّحت وكتبت والنتيجة كانت بالإيجاب حتى اليوم عرفتك من طينة رجال كبار في وزارة المالية من طينة الدكتور خطار شبلي والأستاذ يوسف أبي مارون رحمهما الله وزميلاً للدكتور حبيب أبو صقر والدكتور جوزف طربيه حماهما الله وفي الأعالي وكور ليس يعرفها من عصبة الطير إلا الأجدل الرخم لأن أبناء المحبة يولدون فوراً رجالاً.

أبا وليد عبد الحفيظ وُلدت كبيراً.

الأرض ما كفّت عن الدوران

والشمس ما زالت بألف أمان

لكن جفني لم ينم وأنا أرى

وجه الوفاء مطبق الأجفان

ويُظنُ أني قد غلوت وربما

بعض الغلو أراح لي وجداني

عبد الحفيظ قد أعطيت أكثر من صبح وأبقيت في خزائنك أكثر من شمس.

كنت تسدر كقارورة طيب أضاعت سدادتها ولم تحزن كلها للناس، أولاً وآخراً فكان التهذيب والتواضع خلتان في القارورة مبكراً مبكراً كنحلة، كنبعة، كنسر همه فراخ وكر كموجة تغسل ثياب صخرة مبكراً كفجر مبكراً هكذا طليت.

أنا في ذكراك جريحُ طيرٍ وفي المنقارِ زهراتٌ نحيلة.

عفواً أيها السادة لقد أطلت ولم أفِ الراحل حقه ولكني استأذنت صاحب الذكرى وإن كنتُ قد نسيت أن أستجير بشاعر بلدي نجيب جمال الدين علنا ننجح.

سيذكرني بعد الفراق أحبتي

ويبقى من المرء الأحاديث والذكرُ

زهور الربى بعد الربيع بعيدة

ويدنيك منها في قواريره العطرُ

في اثرك الآداب تمشي وترتمي إذا

شاء أن يرمي عصاه المسافرُ

وخلفك يعدو العلم والذوق والهدى

وأنت بها ما شئت ناه وآمرُ

أيها الحفل الكريم،

ولسوف حتى الشمس تسقط في الدجى ولسوف ماذا؟ ما لدي جوابُ!